

الفصل الخامس

من حكمه ومواعظه وتوجيهاته

إن لابن المبارك من الحكم والمواعظ والتوجيهات الكثير ، اقتصرنا منها على قدر يسير ، وذلك أن المجال المستفيض لدراسة هذه النواحي عند ابن المبارك إنما هو في روايته المستفيضة للأحاديث وهو لم يقتصر في هذه الرويات على أحاديث رسول الله ﷺ وإنما روى الكثير من حكم الحسن البصري وغير الحسن البصري من أفاضل الأمة الإسلامية ، ورواياته هذه إنما هي مختارات ، ولقد سئل مرة : هل تشتغل بحفظ الآثار فقال : إني لا أشغل نفسي بحفظ شيء ، وإنما أنظر في الكتب فما استحسنته نقش في صدري .

إن رواياته إنما هي اختيار له ، واختيار المرء قطعة من عقله ، ومن شعوره ووجدانه ، إنما طابعه وخلقه - ولقد استفضنا في الرواية عنه في مجال الآثار ، وفي ذلك غناء عن الاستفاضة وفي إيراد حكمه ومواعظه ، وها هي ذى بعض حكمه ومواعظه وتوجيهاته :

عن ابن المبارك أنه سأل رجل عن الرباط فقال : رباط بنفسك على الحق حتى تقيمها على الحق ، فذلك أفضل الرباط .

وكان يقول: كيف يدعى رجل أنه أكثر علماً وهو أقل خوفاً وزهداً.

وكان يقول : من ختم نهاره بذكر ، كتب نهاره ذاكراً ، وكان يتحرى هذا العمل .

وكان يقول : رب عمل صغير تعظمه النية ، ورب عمل كبير تعظمه النية .

وكان رضى الله عنه يتمثل بهذين البيتين من كلامه :

وهل بدل الدين إلا الملوك وأجبار سوء ورهبانها

لقد رتع القوم فى جيفة يبين لذى العلم إلتانها

وكان رضى الله عنه يقول : مسكين ابن آدم قد وكل به خمسة أملاك : ملكان بالليل ، وملكان بالنهار ، يجيئان ويذهبان والخامس لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً ، وكان إذا انتهى شيئاً لا يأكله إلا مع ضيف . وكان ينشد إذا ودع شخصاً :

وهون وجدى أن فرقة بيننا فراق حياة لا فراق ممات

وسئل عبد الله : ما ينبغي أن يجعل عظمة شكرنا له ؟ قال زيادة آخرتكم ونقصان دنياكم ، وذلك أن زيادة آخرتكم لا تكون إلا بنقصان دسالة وزيادة دنياكم لا تكون إلا بنقصان آخرتكم .

وعن عبد الله بن المبارك قال : حب الدنيا فى القلب والذنوب احشنته ، فمتى يصل الخير إليه ؟ .

قال ابن المبارك : إذا عرف الرجل قدر نفسه يصير عند نفسه أذل من الكلب .

وكان يقول : كن محباً للخمول كارهاً للشهرة ولا تحب من نفسك أنك تحب الخمول فترفع نفسك .

وقال عبد الله بن المبارك : ودعنى ابن جريج فقال : استودعك الله إن كنت لمأموناً .

قال : وودعني ابن عوف فقال : إن استطعت أن تكون مهتاراً بذكر الله فكن .

قال عبد الله بن المبارك : لو أن رجلين اصطحبا في الطريق ، فأراد أحدهما أن يصلي ركعتين ، فتركهما لأجل صاحبه ، كان ذلك رياء ، وإن صلاهما من صاحبه فهو شرك .

عن ابن وهب قال : رأى رجل سهيل بن علي في المنام فقال : ما فعل بك ربك ؟ قال : نجوت بكلمة علمنيها ابن المبارك ، قلت له : ماتلك الكلمة ؟ ، قال : قول الرجل يارب عفوك عفوك .

عن عبد الله بن المبارك ، عن أبي بكر بن عياش قال : اجتمع أربع ملوك ملك فارس ؛ وملك الروم ، وملك الهند ، وملك الصين ، فتكلموا بأربع كلمات كأنما رمى بهن عن قوس واحدة ، فقال أحدهم : أنا على قول ما لم أقدر مني على رد ما قلت ، وقال الآخر إذا قلتها ملكنتي ، وإذا لم أقدر ملكتها . وقال الآخر : لا أندم على ما لم أقل ، وقد أندم على ما قلت ، وقال الآخر عجبت لمن يتكلم بالكلمة إن رفعت عليه ضرته وإن لم ترفع عليه لم تنفعه .

عن عبد الله بن المبارك عن أخبره قال : قدم وفد من وفود العرب على معاوية فقال لهم : ما تعدون المروءة فيكم ؟ : قالوا : العفاف في الدين ، والإصلاح في المعيشة .

فقال معاوية : أسمع يا يزيد .

قال رجل لابن المبارك : بقي من ينصح ؟ قال فهل بقي من يقبل ؟ . وكان يقول : كاد الأدب أن يكون ثلثي الدين .

وقيل له إن جماعة من أهل العلم يأخذون من الناس الزكوات .

فقال : فما نصنع . إن منعناهم وقفوا عن طلب العلم ، وإن رخصنا لهم حصلوا العلم وتحصيل العلم أفضل .

وكان يقول : لأن أرد درهما من شبهة أحب إلى من أن أتصدق بستمئة ألف ألف .

وقيل له : ما التواضع ؟ قال التكبر على الأغنياء .

وذكر لعبد الله ما كان عليه يوسف بن أسباط من العبادة ، فقال : لقد ذكرتكم قوما يستشفى بذكرهم ، ولكن إن فعل الناس جميعهم ذلك ، فمن لسن رسول الله ﷺ .

وعن الوليد بن عقبة قال : قال عبد الله بن المبارك طلبنا الأدب حين فاتنا المؤدبون .

عن أبي أمية الأسود قال : سمعت عبد الله بن المبارك يقول : أحب الصالحين ولست منهم ، وأبغض الطالحين وأنا شر منهم . ثم أنشد عبد الله يقول :

الصمت أزن بالفتى	من منطق في غير حينه
والصدق أجمل بالفتى	في القول عندي من يمينه
وعلى الفتى بوقاره	سمة تلوح على جبينه
فمن الذى يخفى عليك	إذا نظرت إلى قرينه
رب امرئ متيقن	غلب الشقاء على يقينه
فأزاله عن رأيه	فاتباع دنياه بدينه

قام رجل إلى ابن المبارك فقال : يا أبا عبد الرحمن فى أى شىء أجعل فضل يومى ، فى تعلم القرآن ، أو فى طلب العلم ؟ فقال : هل

تقرأ من القرآن ما تقيم به صلاتك ؟ قال : نعم ، قال : فاجعله في طلب العلم الذى يعرف القرآن .

عن الحسين بن الحسن المروزى ، قال سمعت ابن المبارك يقول : أهل الدنيا خرجوا من الدنيا قبل أن يتطعموا أطيب ما فيها ، قيل له : وما أطيب ما فيها ؟ قال : المعرفة بالله عز وجل .

حدثنا أبو بكر الصوفى عن بعضهم قال : ورد على أمير المؤمنين الرشيد كتاب صاحب الحيرة من هيت أنه مات رجل بهذا الموضع غريب ، فاجتمع الناس على جنازته ، فسألت عنه فقالوا : عبد الله بن المبارك الخراسانى ، فقال الرشيد : إنا لله وإنا إليه راجعون ، يا فضل - للفضل بن الربيع وزيره - ائذن فى الناس من يعذرنا فى عبد الله ابن المبارك ، فأظهر الفضل تعجبا ، فقال : ويحك ! إن عبد الله هو الذى يقول :

الله يدفع بالسلطان معضلة عن ديننا رحمة منه ورضوانا لولا الأئمة لم يأمن لنا سبل وكان أضعفنا نهبا لأقوانا من سمع هذا القول من مثل ابن المبارك مع فضله وزهده وعظمه فى صدور العامة ، ولا يعرف حقنا .

عن عبد الرحمن بن عبيد الله يقول : كنا عند الفضل بن عياض فجاء فتى - فى شهر رمضان سنة إحدى وثمانين - فنعى إليه ابن المبارك ، فقال : رحمه الله ، أما إنه ما خلف بعده مثله .

وكان رضى الله عنه يقول : ما بقى فى زماننا أحد أعرف أنه يأخذ النصيحة بانسراح قلب وقيل له : كيف تعلم الملائكة أن الإنسان قد هم بحسنة ؟ فقال رضى الله عنه : يجدون ريحها .

وكان رضى الله عنه يقول : أربع كلمات انتخبني من أربعة آلاف حديث لا تثقن بامرأة ، ولا تغترن بمال ، ولا تحمل مصرتك ما لا تطيق وتعلم من العلم ما ينفكك فقط .

وعن سعيد بن داود يقول سألت ابن المبارك : من الناس ؟ قال
العماء ، قلت فمن الملوك ؟ قال الزهاد ، قلت : فمن السفلة ؟ قال
الذين يعيشون بدينهم .

المراجع

- كتاب الزهد والرفائق - لابن المبارك - تحقيق الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي
كتاب الجهاد - تحقيق الأستاذ نزيه حماد
عبدالله المبارك - تأليف الدكتور عبد المجيد المحتسب
عبدالله المبارك - تأليف فضيلة الشيخ أبو الوفا المرغى
حلية الأولياء - لأبي نعيم
صفة الصفوة - لابن الجوزي
تاريخ بغداد - للخطيب البغدادي
الكواكب الدرية - للإمام المناوي
وفيات الأعيان - لابن خلكان
الطبقات الكبرى - للشعراني